الفصل الثالث

" بداية ونهاية مؤسفة "

أتى الربيع بألوانه الزاهية وهوائه العليل وغيومه المتفائلة المتفرقة بين التلال والجبال وسمائه الصافية.

تدخل أشعة الشمس الشامخة غرفة ماسة وتوقظها من غفوتها وهي تتأمل جمالها الأخاذ فتفتح عيناها البحريتان اللون لتحضر قهوتها الصباحية وتطمئن على والدتها ويرن هاتفها وهي في غرفة الجلوس ظنت أنه باسم وليس هو إنها شقيقة العمر والروح هديل السمراء ذات العيون البنية الكحيلة والقلب الطيب.

ابتهجت كثيراً لاتصالها وهي تخبرها بأنها ستأتي بزيارة للبلد وهي حامل لتنجب طفلها الأول بين عائلتها وأنها اشتاقت لهم وستكون في المطار غداً صباحاً وطلبت منها أن تخبر يامن ووالدها لاستقبالها.

استعدت ماسة لاستقبال هديل مع عائلتها، ووالدتها التي كانت سعيدة جداً لرؤية ابنتها البكر التي اشتاقت لها كثيراً.

أما ماسة فكانت سعيدة وحزينة لأن حضور هديل في حياتها مجدداً سيجعلها قوية وكانت حزينة لعدم اتصال باسم بها وعندما تتصل به لا يرد عليها .

وفي بعض الأحيان يعطي هاتفه لمن بقربه ليخبروها بأن باسم مشغول جداً وسيعاود الاتصال بها لاحقاً.

فبدأت بحيرة من أمرها والتفكير والكآبة تملأ ملامحها وبريق عيناها يختفي ونبضها يتذمر وعقلها يفكر كثيراً لما يا ترى هو لا يجيب....؟

لم يعد يحبها .....؟

لم يعد يفكر بها ....؟

عاشقة تائهة بين أوراق الحب الذي زرعه في قلبها

هل يا ترى هو يتقصد تجاهلها أم هو مزعوج منها....؟

ألف سؤال وسؤال يدور في مخيلتها ولا يوجد جواب.

تتنهد وتترقب هاتفها بشغف لعله يرن وتسمع صوته يحدثها....!

وذهب يامن مع السيد عبد الكريم إلى المطار لاستقبال هديل، وبقيت ماسة مع والدتها وكاميليا التي أصبحت في عمر التاسعة عشر والشقيقة الصديقة لماسة التي ترافقها بمعاناتها وتقف بقربها وتساندها.

- صباحكم مشرق وجميل.
- هديل اشتقت لكِ كثيراً.
- (تهمس هديل بقوة) هديل هديل

تضم هديل شقيقتاها بشغف وتقبلهم وتدخل بعدها إلى أمها مسرعة وتقبل يداها وجبينها وتغمرها بسعادة وحب والسيدة ماجدة تبتسم وترتسم على ملامحها اشراقة وراحة كبيرة وعيناها تدمعان.

- اشتقت لكِ يا أمي أنتِ بخير ....؟

تبسمت ماجدة وهزت برأسها بإيحاء نعم إنها بخير

- هيا يا هديل ارتاحي لنأكل سوياً أشقائك يحضرون طعام الفطور.
- حاضر حاضر يا والدي ساعدني لنأتي بأمي لغرفة الجلوس لتكون معنا.
- أكيد هيا.

جلست العائلة تأكل وهي في غاية السرور بوجود هديل معهم ولكن ماسة شاردة تحاول أن تبتسم والظنون والأفكار تأتي وتذهب في رأسها رغم كل شيء تفعله لتخفي ما يزعجها ولكن هديل انتبهت لنظراتها السارحة وعدم مشاركتها لهم الحديث كما السابق فشعرت ماسة أن هديل أحست بها فهربت إلى غرفتها مسرعة وأمسكت هاتفها وهي متلهفة لاتصال باسم فقالت هديل بينها وبين نفسها

- ماذا تخفين يا ماسة ولما نظراتكِ تبحث عن شيء لم أفهمه....؟ بعدما يذهب يامن ووالدي سأتحدث معها....

دخلت كاميليا المطبخ لتنظف الصحون وذهب يامن لعمله والأب جلس مع زوجته قليلاً فأعدت هديل القهوة وذهبت بفنجان قهوة إلى الغرفة ووجدتها تمسك هاتفها وهي تنظر إلى السماء من شباك الغرفة.

- لم جميلتي حزينة وصامتة عندما كنا مجتمعين....؟ أين ماسة التي تملأ المنزل بهجة بضحكتها المدهشة وصوتها الرقيق....؟
- أرجوكِ يا هديل لا مزاج لي بالحديث والضحك دعيني وشأني قليلاً.
- ألستِ سعيدة برجوعي ماذا يحصل تحدثي.....؟
- نعم أنا سعيدة ولكن هناك شيء ما.
- أخبريني أنا شقيقتك الكبيرة إن كان لديكِ مشكلة سأساعدك لحلها

- نعم نعم آه يا هديل أنا أتعذب.

ترتمي على صدر هديل وتخبرها بما حصل وهديل تسمع وتلوم ماسة، وتحاول أن تقنعها أن هذا الشاب لا يحبها وأنه كاذب ومخادع وأنها لم تخطء عندما قابلته آخر مرة وعليها أن تفرح وهروبه منها شيء طبيعي لشاب يتلاعب بالفتيات ولا يخاف الله عز وجل.

ولكن ماسة تسيطر عليها مشاعر أخرى لم ولن تستطيع هديل أن تفهمها، أحاسيس أقوى من الكون يسكن في أعماق قلبها تمتلكها وتدفعها للتفكير به في كل لحظة حتى أحلامها التي كانت تعطيها تفاؤل لم تعد تأتيها كما السابق.

أخرجت منديلاً ومسحت لها دموعها التي تنهمر بحرقة.

- ألا تريدين الذهاب إلى العمل.....؟
- لا لن أذهب اليوم طلبت إجازة لأجلكِ لأقضيه معك غداً سأذهب بإذن الله

- جيد هيا إذاً لنجلس مع والدتنا ولكن ابتسمي لا تظهري لها ما يحصل معك
- أكيد أكيد.....

قضت ماسة يومها مع شقيقتها الكبيرة وأخبرتها بتفاصيل علاقتها مع باسم وهي سعيدة لأنها وجدت من تخبره بألمها وما يدور في فكرها فارتاحت كثيراً وعادت لها ابتسامتها وشعرت بالأمان الداخلي.

وفي صباح اليوم الثاني خرجت مع هديل وكاميليا ووالدتها إلى الحديقة بنزهة ليقضون يومهم مع الطبيعة..

وعند غروب الشمس عادوا إلى المنزل وجهزت نفسها ماسة للذهاب إلى العمل وهي تتأمل أن يتصل بها باسم وعند دخولها المشفى كانت هناك حالة اسعافية فدخلت مسرعة بدلت ملابسها وهمت بنشاط إلى غرفة الطبيب لتساعده وكانت لسيدة ثلاثينية حامل وولادتها مستعصية لأن الرحم فيه انقباض بسبب الحوض

بسبب الانسداد جسدياً فكان الطبيب في حيرة من أمره من الولادة المتعسرة فقرر أن يجري لها عملية قيصرية عاجلة فشاهدت ماسة زوج السيدة يبكي فاقتربت منه لتواسيه وتخفف عنه.

- مرحبا اهدأ لا تخف زوجتك ستكون بخير وبحالة جيدة الطبيب يعمل على إنقاذها وستلد وتكون بخير لا تقلق.
- أرجوكِ أخبريني هل هي بحالة صحية جيدة ولما تتألم كثيراً ومنعوني من رؤيتها وأدخلوها للعناية المشددة قبل غرفة الولادة.
- لا لا هم فقط يريدون أن يجرون لها بعض الفحوصات اللازمة لا أكثر والآن أنزلوها لغرفة الولادة ستكون بخير اطمئن فقط ولا عليك.
- شكراً شكراً يا آنسة ما اسمك؟
- ماسة وإن احتجت لأي شيء أخبرني اتفقنا سأهتم بها بنفسي بعد أن تخرج من غرفة الولادة لغرفتها الخاصة.

- ممتن لكِ يا ماسة أنا اسمي سعيد تشرفت بمعرفتك.
- وأنا أيضاً، بعد ساعة ستشاهد زوجتك والطفل الصغير بخير عن إذنك الآن لديّ عمل.

ولدت زوجته بنتاً جميلة بعد أن أنقذ الطبيب الأم والطفلة وجلست في غرفتها وماسة كانت المسؤولة عنها وعن الطفلة فاهتمت بها كثيراً فنشأت علاقة قوية بينهم مع السيدة دانا وزوجها سعيد وبعد مرور أسبوع من الزمن تخرجت السيدة دانا مع طفلتها يرافقها زوجها سعيد.

- اليوم سنخرج من المشفى يا ماسة وأنا لن أنسى اعتنائكِ الكبير بي وبطفلتي سأعطيكِ رقم هاتفي زورينا وإن احتجتِ لشيء ما لا تتردي بالاتصال.
- هذا الأمر يسرني أكيد سأزوركم وأتصل لأطمئن عليكِ وعلى الصغيرة وسأشتاق لكم كثيراً حمداً لله على سلامتك وحفظ الله لكِ زوجك وطفلتك الجميلة.

- وحفظك الله يا ماسة وأسعدكِ دائماً وشكراً جزيلاً.
- لا تشكريني فهذا عملي وعليّ أن أقوم به بضمير وتفاني وأمانة.
- سعيد ينتظرني في مكتب الاستعلامات.
- سأوصلك للخارج هيا.

ومرت ثلاثة أسابيع وماسة تنتظر اتصال باسم ولم يتصل فقررت أن تذهب لتراه وتتحدث معه شخصياً.

فانطلقت عند الصباح الباكر تنتظره بالقرب من منزله لتتحدث إليه عندما يخرج لعمله وقفت عند موقف قريب من الحي وبعد نصف ساعة من الوقت لمحته يقترب من الموقف فشاهدها واندهش كثيراً عندما رآها تنتظر بالقرب من منزله واقترب منها وهو منزعج والغيظ يملأ قلبه وعقله منها أما ماسة فكان قلبها يدق مسرعاً ويداها ترتجفان وعيناها تنظر له بخوف وعندما أصبح بينهما خطوة واحدة نظر لها بنظرة حدة وقال لها:

- ماذا تفعلين هنا يا ماسة هل جننتِ....؟

- أتيت لرؤيتك! لما لا تتصل ولا تجيب على رقمي عندما تشاهده قلقت عليك هل أنت بخير....؟
- لا أريد أن أتحدث معك بعد اليوم هيا اذهبي من هنا ولا تتصلي وتتعبي نفسك لن أرد على اتصالاتك المزعجة من دون سبب
- لماذا يا باسم أين الحب ووعودك لي والحياة التي رسمناها سوياً....؟
- ربما أنتِ لا تسمعين ما قلت هل جرى لعقلك شيء....؟ لا تنظري لي هكذا أنا لم أعدكِ بشيء ولا أحبك اذهبي.....!

فانصرف باسم من أمام ماسة وهي تقف مأخوذة من كلامه المهين ومصدومة والحزن ارتسم على ملامحها والدنيا تدور بها وتصفعها لتصحو من صدمتها كيف لرجل بألف وجه تارة طيب وتارة شرير وتارة كاذب وتارة صادق (أن يصنع حباً بقلب فتاة ويشتل حقولها بتلات وينام مرتاح الضمير إن لم يكن شيطاناً خبيثاً له ألف وجه ووجه).

فعادت أدراجها إلى المنزل مكسورة القلب كأنها جنين سقط من رحم أمه قبل ولادته لأن الحبل السري انقطع عنه ومات لا يستطيع أن يتنفس ولا أن يتغذى فقد الأوكسجين الذي يتدفق إليه ففارق جسده وتلاشت مطالبه إلى قعر معتم يسوده غسق كاحل لا يرى الضياء.

دخلت منزلها ولم تلقِ تحية على أحد استلقت على سريرها وغطت رأسها لكي لا يراها أحد أنها تبكي وحاولت كتمان صوت أنينها وكانت تقول أنها تتألم من رأسها كثيراً لمن يسألها من شقيقاتها هديل وكاميليا ولم تذهب إلى عملها وبقيت تتنقل في غرفتها فقط مدعية التعب فخطر ببالها زوجة سعيد السيدة دانا لتزورهم وتخبرهم بما حصل معها وعند الصباح الباكر خرجت إلى منزل السيدة دانا وجلست معها وأخبرتها بما حصل بتفاصيل وطلبت منها السيدة دانا أن تبتعد عنه وتنساه لأنه انسان مذبذب ومنحط

أخلاقياً ولا يستحق حبها وقلبها النقي وأن هناك أفضل منه بألف مرة وأن تهتم بنفسها وبوالدتها وأن تكمل دراستها.

ارتاحت ماسة لحديث دانا وعادت لها ثقتها المعتادة وقررت أن تنهي باسم من حياتها وتكمل دراستها وتصبح طبيبة ناجحة.

بدأت تحاول النسيان وعادت إلى عملها والأحلام التي تنسجها في عقلها وأن تقذف هذه التجربة في البحر ليأخذها الموج بعيداً إلى ما وراء الغروب إلى الماضي الذي أغلقت عليه الباب ورمت المفتاح في القاع لكي لا تعود له مجدداً.

مرت عشرة أيام بعد لقائها الأخير بباسم وهي تعيش بهدوء وسلام داخلي ولكن حدث شيء لم تتوقعه ماسة أن يحصل أعادها للسطور القديمة التي حذفت منها ما أزعجها وآلمها وكتبت عليها عنواناً وتاريخ وكلمات جديدة لتحذف ما دونته بأول السطر لتكتب عنواناً لمعركة نفسية ومصيرية.

وماذا ينتظرها من بداية ونهاية مؤسفة...

في يوم مشمس بعد أن مرت عدة أسابيع كانت الساعة الثانية عشر ظهراً طرق باب منزل ماسة فهمت هديل لفتح الباب وقالت:

- من أنت....؟
- أنا الشرطي تبليغ افتحي الباب لو سمحتِ (فتحت الباب مندهشة)
- من أنت....!
- اها أهلاً وسهلاً من تريد ولمن التبليغ...؟
- شكراً التبليغ لفتاة اسمها ماسة.
- ماذا هل أنت متأكد....؟
- نعم متأكد أين هي لو سمحتِ سيدتي....؟
- سأخبرها انتظر هنا قليلاً

ذهبت ماسة مع هديل إلى مخفر الشرطة وعلمت أنها ستبقى لديهم بعد أن يذهب الضبط إلى النيابة العامة وأخبرها لعدم

كفاية الأدلة سيتم الإفراج عنها ولكن بعد أن يأتي الضبط من النيابة العامة فبقيت هديل وماسة هناك.

وماسة شبه منهارة ودموعها والدعاء لربها أن يكون معها لم يتوقف.

وأتى الشرطي ومعه قرار الإفراج عنها فشكرت ماسة العميد للطفه وأخلاقه العالية وقدم لها النصح أن تستشير محامي لربما هناك ستكون هناك دعوى قائمة ضدها من المحامي باسم بجرم تهديد بالقتل والازعاج خرجت ماسة متعبة ورأسها يؤلمها من الصدمة والتفكير وقواها تنهار وهديل صامته وعندما وصلتا إلى المنزل قالت لها هديل.

- لن أخبر والدك الآن يجب أن نجد حلاً وبسرعة والدتك إذا علمت ستتعب وربما تتراجع صحياً ألم أقل لكِ أن لا تنجرفي مع أي شاب حتى لو كان صادق انظري ما حصل سيدمر لكِ حياتك هذا الرجل الأحمق الذي لا يخاف الله.

ماسة تبكي فقط والدنيا سوداء في عيناها ودخلتا المنزل وتوجهت مسرعة لغرفتها وهديل أخبرتهم بأنها تتألم من تقلب الطقس ورأسها يؤلمها فهي مصابة بالزكام ومضى يوم صعب كثيراً على ماسة وهديل التي لم تنام طيلة الليل وهي تفكر وتفكر بما حصل وسيحصل وأنها بعد شهرين ستسافر ولمن ستترك ماسة وأنها قلقة عليها وكيف ستساعدها قبل رحيلها.

وعند الصباح الباكر اتصلت ماسة بزوجة سعيد السيدة دانا وأخبرتها بما حصل فأخبرت بدورها سعيد الذي غضب كثيراً وطلب رقم ماسة ليراها ويأخذها لصديق له محامي ليقف بجانبها والدفاع عنها وأنه سيخبر والدها وشقيقها ليكونوا عوناً لها وعندما حل المساء أتى سعيد لزيارة والد ماسة وهو في حيرة من أمره كيف سيبدأ وبأي كلام سيبوح لهذه الأسرة الراقية التي لم يحدث في مدارها ثقوب سوداء لأنها مثالية.

ما الذنب الذي ارتكبته هذه الفتاة أنها أحبت بصدق ووثقت بإنسان سنعلم فيما بعد أسباب ادعائه على روحها النظيفة التي لا تعرف الغل والحقد والكره والخداع.

شرب قهوته وأخبرهم بكل شيء فصمت الأب ونظر إلى أعالي غرفة الجلوس وهو رافع رأسه فخوراً بابنته وليس بساخط وطلب من سعيد أن يكون معها وأن تذهب معه إلى صديقه المحامي تامر للدفاع عنها وتوكيله قانونياً.

ماسة كانت سعيدة من ردة فعل والدها واحتضنته وزرفت دموعها واعتذرت منه وقبلت جبينه ويداه بحرارة وهو احتضن ابنته وقال لها بكل ثقة.

- أنا معك يا ابنتي لن أتخلى عنك أبداً أنتِ رائعة وبريئة وستنتصرين.

وبعدما ذهب سعيد طلب السيد عبد الكريم من الجميع عدم إخبار يامن بما حصل لخوفه على ماسة منه وغضبه على الرجل المدعي عليها.

كان باسم في هذا الوقت مع صديقته سالي يتحدث معها عن الدعوى وأنها ستكون شاهدة معه ضد ماسة وسلوى تشجعت كثيراً للموضوع وخاصة أنها تريد أن تبعد ماسة أكثر عن باسم وأن تخلق بينهم عداوة لأنها تحبه وتريد الزواج منه لطالما حدثها باسم عن ماسة وعن حبه الشدي لها ولكنها تساءلت عن سبب أذيته لها ولم يعطيها جواب مقنع ويتهرب.

والشاهد الثاني هو المستخدم في المكتب الذي يعمل به باسم كمحامي أعطاه المال ليشهد معه بأنه سمع ماسة وهي في المكتب وتهدده بالقتل وإنها ستدمر حياة المحامي باسم.

مرت بضع أيام وتواعد سعيد مع ماسة للذهاب سوياً إلى المحامي تامر بعد الانتهاء من عملها..

- يومك سعيد أستاذ تامر.
- أسعد الله مساءك أنت وضيفتك.
- مساء الخير أستاذ.
- تفضلوا بالجلوس لنشرب القهوة سوياً ونتحدث.. يا محمود حضر لنا القهوة للآنسة وسيد سعيد.
- لا داعي لإهدار الوقت يا أستاذ الآنسة ماسة لا تستطيع أن تتأخر عن منزلها.
- ولكن أنت لست زبون وأنا اشتقت لك يا سعيد منذ مدة طويلة لم أراك عندي هنا في المكتب وسنبدأ بالموضوع يا آنسة ماسة. أخبرني سعيد ببعض المجريات على الهاتف ولكن أريد أن أفهم منك بعض الأمور التي حدثت لا أكثر وسأتوكل عنك بإذن الله ولكن كوني صريحة وصادقة بجميع التفاصيل تفضلي.

تحدثت ماسة بكل وضوح وصراحة للمحامي تامر وكانت تعتلي ملامح تامر والاستغراب مما سمع وبخبرته كمحامي شعر بالظلم من نبرة صوت ماسة وملامحها الصادقة.

- فهمت فهمت لا تبكي يا آنسة ماسة سأقف بجانبك وتظهر براءتك ولا أريدك أن تكوني ضعيفة اهدأي وقاومي وكوني كما أنتِ ومارسي حياتك اليومية من دون أي منغصات.
- شكراً لك أستاذ تامر أنا ممتنة لكلامك المحفز.
- مشكور جداً يا تامر أنت شقيق وصديق قديم وأريدك أن تعتبر ماسة التي أعتبرها شقيقتي مثلي تماماً الموضوع أصبح عندك الآن ولنتكل على الله وعليك.
- لا عليك يا سعيد الموضوع هنا سينتهي بإذن الله ولكن المخاصمة ضد محامي تحتاج إلى الوقت ولكن ليس بطويل غداً صباحاً سأذهب إلى النقابة لتقديم طلب الإذن وبعدها عند

الساعة الثانية عشرة ستأتي ماسة إلى القصر العدلي لنقدم الوكالة عند كاتب العدل اشربا القهوة ستبرد.

ضحكوا جميعاً وابتسمت ماسة وأحست بالسكينة وكأنها تشاهد جبل الجليد تذوب من عليه الثلوج وتنبت على قمته الأشجار الخضراء لتعلن اشراقتها بأمل لبداية ونهاية بالهناء والمرح.

- نحن ذاهبون طاب يومك بالسعادة يا تامر.
- مع السلامة أستاذ تامر.
- ستأتون مرة أخرى وغداً موعدنا يا ماسة وهذا رقمي مكتوب على البطاقة رافقتكم السلامة.

خرجت ماسة مع سعيد من مكتب تامر الذي أعطاها جرعة من الطاقة الإيجابية من كلامه المفعم بالتفاؤل وهي نشيطة وقلبها وعقلها يخبرانها بأنكِ ستجتازين هذه المحنة بخير وسلام.